



أ/ عباس أبو يم شريفة

التصلب الفكري

عند الجماعات الإسلامية



إن الجمع بين المرونة والثبات من أخص خصائص الشريعة الإسلامية وهذه خصيصة تقتضها خصيصة الخلود فلما كانت الشريعة خالدة ناسخة لما قبلها كان لابد أن تحمل قابلية الاستيعاب لكل مستجدات الحضارة والواقع المتغير ضمن مصادر التشريع المرنـة (الاجتهاد) الذي لا يملك أحد أن يغلق بابه إلى يوم الدين.

تُعرف المرونة بأنها هي (الحد الفاصل) بين الثبات المطلق الذي يصل إلى درجة الجمود، والحركة المطلقة التي تخرج بالشيء عن حدوده وضوابطه، أي أن المرونة حركة لا تسـلـب التـمـاسـكـ، وثـبـاتـ لا يـمـنـعـ الحـرـكـةـ

في كل منظومة فكرية أو أيديولوجية هناك دائرة الصلبة والدائرة المرنـة حتى هاتين الدائرتين هي مستويات متباعدة في شدة الصـلـابـةـ والمـرـوـنـةـ فلا مجال للنظرـةـ الـحـدـيـةـ الـمـحـضـةـ الـتـيـ تـجـعـلـ منـ الـحـكـمـ ثـنـائـيـ.

فـهـنـاكـ مـنـ يـظـهـرـ إـلـاسـلـامـ بـمـرـوـنـةـ مـفـرـطـةـ تـشـابـهـ المـاءـ الـذـيـ يـأـخـذـ شـكـلـ إـلـيـاءـ الـذـيـ يـوـضـعـ بـهـ وـلـونـ الـمـحـلـولـ الـذـيـ يـحلـ فـيـهـ وـهـنـاكـ مـنـ يـظـهـرـ بـمـظـهـرـ التـصـلـبـ الـمـفـرـطـ كـالـجـلـيدـ الـذـيـ يـكـسـرـ كـلـ إـنـاءـ يـوـضـعـ فـيـهـ.

وـالـحـقـيقـةـ أـنـ فـيـ إـلـاسـلـامـ دـائـرـةـ الـصـلـبـةـ (ـالـعـقـائـدـ،ـ الـعـبـادـاتـ،ـ الـمـحـرـمـاتـ الـقـطـعـيـةـ)ـ {ـلـأـعـبـدـ مـاـ تـعـبـدـونـ}ـ الـكـافـرـونـ،ـ وـهـنـاكـ دـائـرـةـ الـمـرـنـةـ (ـالـوـسـائـلـ وـالـأـسـالـيـبـ وـالـسـيـاسـةـ الـشـرـعـيـةـ)ـ الـتـيـ يـنـاـوـرـ فـيـهـ السـيـاسـيـوـنـ (ـامـحـهـاـ يـاـ عـلـيـ،ـ اـكـتـبـ مـحـمـدـ بـنـ)

الخوارج ومن ينتهج فكرهم جعلوا من الإسلام دائرةً واحدةً صلبة فتكسرُوا لأنهم لا يستطيعون المناورة، فينزلقون في مزالق التكفiro والتبييد.

والمرجئة جعلوا من الإسلام دائرة واحدة مرنّة فتميّعوا ومناوراتهم تكون على كل الدوائر فينزلقون في مزالق الكفرو والتبييد. ونحن نرى الكثير من التيارات التي ت نحو نحو التصلب والجمود إنما تفعل ذلك كردة فعل على من يجنحون نحو الميوعة والتحلل بـلي أعناق النصوص وتأويل المحكمات وفي المسافة بين الفعل ورد الفعل ينحصر صوت العقل والرشد ويرتفع صوت التعصبية السمجة.

تكلاد الجماعات الإسلامية ذات المناهج الخاصة ينقسمون إلى فئتين متقابلتين:

- جماعات تبرز جانب المرونة والتطور في أحكام الإسلام حتى تحسبها عجينة لينة.
- وجماعة تبرز جانب الثبات والخلود في تشريعه وتوجيهه حتى تحسبها صخرة صلدة.

وقليل من هذه الجماعات كانت رؤيتها واضحة لهذا المنهج الإلهي الفريد و تستطع المواجهة في تعاطيها بين المتغيرات والثوابت.

إن من أجل مظاهر التوازن التي يتميز بها نظام الإسلام هو التوازن بين الثابت والمتحدد:

- الثبات على الأهداف والغايات والمقاصد الكلية والمرونة في الوسائل والأساليب.
- الثبات على الأصول والكلمات والمرونة في الفروع والجزئيات.
- الثبات في القطعيات والمرونة في الظنيات.

ومن الأمثلة على الجمع بين المرونة والثبات من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ثباته في موقفه صلى الله عليه وسلم من القرىشية المخزومية التي سرقت ومحاولته قريش تخلصها من العقوبة عن طريق الشفاعة إلى رسول الله بحبه وابن حبه (أسامة بن زيد) فغضب الرسول وقام بينهم خطيباً قائلاً: ((إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها)) رواه الشيخان.

وتمثل مرونته في قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقطع الأيدي في الغزو)) رواه أبو داود

جاء في مصنف عبد الرزاق عن الحكم بن مسعود الثقفي قال: قضى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امرأة توفيت وترك زوجها وأمها وأختها لأبيها وأمها وأخويها لأمها، فأشرك عمر بين الأخوة للأم والأب والإخوة للأم في الثالث، فقال له رجل: إنك لم تشرك بينهم عام كذا، قال عمر: تلك على ما قضينا يومئذ، وهذه على ما قضينا اليوم [مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية - ج 19: أصول الفقه الصفحة 69] [إعلام الموقعين عن رب العالمين]، كتاب عمر في القضاء وشرحه، تغير الحكم بتغير الاجتهاد الجزء الأول ص[87].

وهذا الإمام الشافعي رجع عن مذهب كامل في العراق إلى مذهبه الجديد في مصر لما بدا له من أدلة. جاء في مناقب الإمام الشافعي للبيهقي (1/263) (قيل لأحمد بن حنبل: مما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين أحب إليك أم التي عند المصريين، قال: عليك بالكتب التي وضعها بمصر، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم ذلك)

تعرض الجماعات الإسلامية للخطر نتيجة أحد أمررين:

الأول: أن تتصلب على ما شأنه التغيير والتطور فتصاب الحياة بالعقم والجمود وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشروع

عن هدي الإسلام الصحيح فتوقف الاجتهد في الفقه وكان إغلاق باب الاجتهد أكبر جنابة على الفكر الإسلامي الذي وصل إلى الانحطاط بحجة ما ترك الاول للأخر من شيء ووقف الإبداع في العلم والابتكار في الحرب وضررت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكرة تستيقظ وتتطور ثم تنموا وتتقدم.

الثاني: أن تخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والاستقرار كما نرى في عصرنا الحاضر إن فئة من أبناء المسلمين ي يريدون خلع الأمة من دينها باسم التطور.

إذا أردت لهذا أن لا يتحقق فلذلك شروط مثالية تثير عواطف الأغرار وتجدهم وإنجاز المنقوص لصاحب القدرة المحدودة وأكتفي ببطلة التقييم والمحاكمة.

الجمود في فكر التيارات الإسلامية يمتد إلى ثلاثة جوانب:

في جانب التعامل مع التيارات الإسلامية الأخرى ومرده إلى توسيع مساحة القطعيات على حساب مساحة الظنية فيصبح أي نوع من التلاقي هو تنازل عن المعلوم بالضرورة والاختلاف في ترتيب الأولوية يجعل بعضها تبدأ من حيث تنتهي الجماعة الأخرى فيحصل الاصطدام.

في جانب التعامل مع الحضارات الإنسانية والمنتج البشري المدني ورفض الإفاده من الوسائل بناء على اختلاف الأصول العقدية كمن يرفض تناول العسل لما أصابه من لسع النحل والقاعدة الضابطة لهذا الأمر [التفاعل بلا ذوبان والخصوصية بلا انفلاق]

إن استيراد الوسائل الحضارية يمثل قمة المرءة في نهج النبوة فقد استورد الخندق من حضارة فارس والخاتم من حضارة الروم والمنبر من حضارة الحبشة.

في جانب التعامل داخل الجماعة الواحدة بين الاتباع والقيادة فالعناصر يعدون بطريقة الآلة الصماء البكماء ضمن الشروط القياسية للحزب والتي تستعد لتلقي التعليمات دون المناقشة والاعتراض وظهر التصلب جلياً بين هذه الجماعات ومناهجها في ظل غياب مساحة الحوار وإرساء قواعد التقليد الأعمى وانعدام الاجتهد والتجديد والمراجعة في فكر الجماعة والتحرك ضمن مقتضيات العصر والمكان.

فمشكلة المعجبين بالجماعات والرموز أنهم يريدون تعميم أفكار من يحبون ومناهجهم على كل الظروف الزمانية والمكانية فيقعون في التّعصب الممْجوج، والإنصاف أن تُحاكم الأفكار في سياقٍ خُصوصيَّةٍ الظَّرف أمام مأزق التصلب الفكري الذي دخلت فيه بعض الفسائل الممنهجة.

{المنهج هو جعل اتجهات منظري الجماعة بمثابة القواعد القطعية في رسم استراتيجية العمل الحركي للجماعة فتصبح بمثابة الهوية التعريفية للتيار} في الساحة بات من شبه المستحيل الالتقاء على مشروع واحد بسبب تضخم دائرة القطعيات في مناهجها الحزبية وتمترس كل تيار وراء ترسانة من النفايات الفكرية التي تشكل المبرر لوجود الجماعة لذلك عندما يصل البعض إلى الاختيار بين جماعته والأمة يقول لك جماعتي أو الأمة ولكن عندما تتلون بلون منهانا.

إن أزمة التضخم الفكري لدى الفسائل الممنهجة تشبه مشكلة فأر القرع الذي أحدث ثقباً في قرعة ودخل ليأكلها من الداخل فلما سمن بداخلها لم يستطع الخروج منها إلا بعد طرح سمنتها وهكذا نرى كثيراً منا بحاجة إلى الريجيم الفكري قبل إعادة تأهيله، لكن ما يمنع الكثير من اقتحام هذا الدرع الصعب هو أن التطورات الفكرية ونسف ما يصل إلى درجة المسلمات عند الجماهير والاتباع سيواجهه بمعارضة شديدة لا تخلو من التفسيق والتبييع وقد تصل لحد التكفير كما كفر ابن تيمية لما خرج عن المأثور للمدارس الفقهية في عصره ولكن بعد قرون من الزمن رجع كثير من المفتين يستجدى من أقوال ابن تيمية ليجد فيه سعة على الأمة وهذا يحصل لكثير من أهل الفكر والعلم الذين يسبقون عصورهم.

إن الفكرة قد تنضج في عقل المفكر قبل أن ينضج الناس لقبولها هذا الفارق الزمني قد يجعل الكثير من المبدعين في حالة من الغربة وأن يُسلق بأسنة حداد فيعرض عن البوح بالكثير مما يدور في خلده ذلك بأن العوام ينضجون بالتجربة وأهل العلم ينضجون بالاعتبار فالذين ينضجون بالعبرة أسرع خطىً من الذين تكمل قناعتهم بالتجربة الذاتية وعندما يصلون سيجدون أفكار المفكرين السالفين قد سبقتهم إلى كبد الحقيقة وهنا سيعرفون قدرها وقدر أهلها.

فالأمر يستدعي مراجعة شاملة لإخراج كثير من الأوهام والظنون الفكرية من دائرة القطع وال المسلمات لتذويب السود الجليدية الفكرية التي تعيق كل مشاريع التوحد والمجتمع إن أفكارنا المبعثرة تحتاج إلى ترتيب وأفكارنا الضامرة تحتاج إلى تنمية أفكارنا القديمة تحتاج إلى تجديد، والأفكار المعطلة تحتاج إلى تشغيل فمعركتنا الكبرى هي معركة فكر بالدرجة الأولى وما صوت السلاح إلا صدىً بسيطاً من أصدائها والرابح النهائي هو من يكسر جليد الأفكار التي تعيق ذلك القافلة ويستطيع أن ينتج مزيداً من الأفكار التي يواجه بها تحديات العصر وإلا ستتصيبنا كل شروره.

والحمد لله،،،

نور سوريا

المصادر: